بسم الله الرحمن الرحيم

٤٤ ــ سورة الدخان

قال المهايمىّ : سميت به لدلالة آيته على أنه جزاء غشيان أدخنة النفوس الخبيثة ، بصائرَ قلوب أهلها وأرواحهم. ولذلك رأوا الدلائل شبهات الشياطين. وجعلوا المميز بينهما مجنونا. وإن القرآن كاشف عنه كـكشف الدخان المحسوس عنهم ، وهى مكية . وآيها خمسون وتسع.

روى[1] الترمذىّ مرفوعا : من قرأ (حمٓ الدخان) فى ليلة ، أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك . ثم قال : غريب . وعمرو بن أبى خثعم راويه ، يضعّف . قال البخارىّ : منكر الحديث. أفاده ابن كثير .

(١) أخرجه فى : ٤٢ ـ كتاب ثواب القرآن ، ٨ ـ باب ما جاء فى فضل (حمٓ الدخان).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (حمٓ)

[٢] (وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ)

[٣] (إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ، إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ)

« حمٓ * وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ * إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ » يعنى ليلة القدر التى قدر فيها سبحانه إنزال ذكره الحكيم . وكانت فى رمضان . كما قال سبحانه(١) (شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ) قال ابن كثير : ومن قال إنها ليلة النصف من شعبان، فقد أبعد النجعة . فإن نص القرآن أنها فى رمضان . وما روى من الآثار فى فضلها ، فمثله لا تعارض به النصوص . هذا على فرض صحتها . وإلا فهى ما بين مرسل وضعيف . والبركة اليمن . ولا ريب أنها كانت أبرك ليلة وأيمنها على العالمين، بتنزيل ما فيه الحكمة والهدى ، والنجاة من الضلال والردى . قال القاشانىّ : ووصفها بالمباركة ، لظهور الرحمة والبركة ، والهداية والعدالة فى العالم بسببها . وازدياد رتبته ﷺ وكماله بها . كما سماها (ليلة القدر) لأن قدره وكماله إنما ظهر بها « إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ » أى من خالف مقتضى الحكمة وقوة الدلائل ، واختار المذامّ وتذلل للهوى ولم يكتف بهداية الله ، ولم يقت روحه بقوت معارفه ، وذلك لتقوم حجة الله على عباده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ)

« فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ » أى يفصل ويبين كل أمر تقتضيه الحكمة ، على

(١) [٢ / البقرة / ١٨٥] .

وجه متين محمود عند الكمل تقتات به أرواحهم ، وترحم به نفوسهم . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ، إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ)

[٦] (رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ، إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ)

« أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ » نصب على الاختصاص . أى أعنى بهذا الأمر أمرا حاصلا من عندنا على مقتضى حكمتنا . وهو بيان لفخامته الإضافية ، بعد بيان فخامته الذاتية « إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ » أى مرسلين إلى الناس رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آيات الله ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، رحمة منه تعالى بهم ، لمسيس الحاجة إليه . كما قال تعالى[1] (وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ) وجوز كون (رحمة) علة للإنزال . أى رحمة تامة كاملة على العالمين بإنزاله ، لاستقامة أمورهم الدينية والدنيوية ، وصلاح معاشهم ومعادهم ، وظهور الخير والكمال والبركة والرشاد فيهم بسببه . والوجه هو الأول . وهو كونه غاية للإرسال . لإفصاح تلك الآية عنه « إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ » أى لدعوة حقائق الأشياء بمقتضياتها « ٱلْعَلِيمُ » أى بمقادير قابلياتها ، فلا يبعد عليه الإرسال والإنزال . قاله المهايمىّ. وقال القاشانىّ : أى : السميع لأقوالهم المختلفة فى الأمور الدينية الصادرة عن أهوائهم ، (العليم) أى بعقائدهم الباطلة وآرائهم الفاسدة وأمورهم المختلة ومعايشهم غير المنتظمة . فلذلك رحمهم بإرسال الرسول الهادى إلى الحق فى أمر الدين . الناظم لمصالحهم فى أمر الدنيا ، المرشد إلى الصواب فيهما ، بتوضيح الصراط المستقيم ، وتحقيق التوحيد بالبرهان ، وتقنين الشرائع وسنن الأحكام لضبط النظام .

---

(١) [٢١ / الأنبياء / ١٠٧]

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] ﴿ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ، إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾

[٨] ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ، رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

[٩] ﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾

« رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ » قال أبو مسلم : أى إن كنتم تطلبون اليقين وتريدونه ، فاعرفوا أن الأمر كما قلنا . كقولهم (فلان منجد متْهم) أى يريد نجدا وتهامة . اهـ . وقيل : معناه إن كنتم موقنين بما تقرون به ، من أنه رب الجميع وخالقه « لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ * بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ » أى بل ليسوا بموقنين فى إقرارهم بربوبيته . لأن الإيقان يستتبع قبول البرهان . وإنمـا هو قول ممزوج بلعب ، لغشيان أدخنة أهوية نفوسهم ، بصائرَ قلوبهم وأرواحهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾

[١١] ﴿ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

[١٢] ﴿ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾

« فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ * يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ » أى انتظر لمجازاتهم ذلك اليوم الهائل . ولا يستعمل (الارتقاب) إلا فى أمر مكروه . وللسلف فى معنى الدخان ثلاثة أوجه : الأول ـ قال بعضهم : كان ذلك حين دعا رسول الله ﷺ على قريش أن يؤخذوا بسنين كسنى يوسف . فأخذوا بالمجاعة . قالوا : وعنى بالدخان ما كان يصيبهم حينئذ فى أبصارهم من شدة الجوع ،

من الظلمة كهيئة الدخان . روى ابن جرير[١] عن مسروق قال: كنا عند عبد الله بن مسعود جلوسا وهو مضطجع بيننا . فأتاه رجل فقال : يا أبا عبد الرحمن: إن قاصّا عند أبواب كندة يقصّ ويزعم أن آية الدخان تجيء فتأخذ بأنفاس الكفار ، ويأخذ المؤمنين منه كهيئة الزكام . فقام عبد الله وجلس وهو غضبان ، فقال : يا أيها الناس ! اتقوا الله . فمن علم شيئا فليقل بما يعلم . ومن لا يعلم فليقل (الله أعلم) . فإنه أعلم لأحدكم أن يقول لما لا يعلم (الله أعلم) وما على أحدكم أن يقول لما لا يعلم (لا أعلم) فإن الله عز وجل يقول[٢] لنبيّه ﷺ (قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ) إن النبيّ ﷺ لما رأى من الناس إدبارا قال : اللهم سبعا كسبع يوسف. فأخذتهم سَنَةٌ حصّت كل شيء حتى أكلوا الجلود والميتة والجيف. ينظر أحدهم إلى السماء فيرى دخانا ، من الجوع . فأتاه أبو سفيان بن حرب فقال : يا محمد ! إنك جئت تأمرنا بالطاعة وبصلة الرحم ، وإن قومك قد هلكوا ، فادع الله لهم . قال الله عز وجل[٣] (فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ) إلى قوله[٤] (إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ) قال : فكشف عنهم[٥] (يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ) فالبطشة يوم بدر. وقد مضت آية الروم وآية الدخان . والبطشة واللزام .

قال ابن كثير : وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين[٦] ورواه الإمام أحمد[٧] فى مسنده

(١) انظر الصفحة رقم ١١٢ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

(٢) [٣٨ / صٓ / ٨٦] . (٣) [٤٤ / الدخان / ١٠] .

(٤) [٤٤ / الدخان / ١٥] . (٥) [٤٤ / الدخان / ١٦] .

(٦) أخرجه البخاريّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٤٤ ـ سورة الدخان ، ٢ ـ باب يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ، حديث رقم ٥٧٠ ، عن عبد الله بن مسعود .

وأخرجه مسلم فى: ٥٠ ـ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، حديث رقم ٣٩ (طبعتنا).

(٧) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣٨٠ من الجزء الأول (طبعة الحلبيّ) والحديث رقم ٣٦١٣ (طبعة المعارف) .

وهو عند الترمذى[١] والنسائى فى تفسيرها، وعند ابن جرير[٢] وابن أبى حاتم من طرق متعددة
وقد وافق ابنَ مسعود رضى الله عنه على تفسير الآية بهذا ، وأن الدخان مضى، جماعةٌ من
السلف كمجاهد وأبى العالية وإبراهيم النخعى والضحاك وعطية العوفى، وهو اختيار ابن جرير.

قال الحافظ ابن حجر فى (الفتح) : والظاهر أن مجىء أبى سفيان كان قبل الهجرة .
لقول ابن مسعود (ثم عادوا) ولم ينقل أن أبا سفيان قدم المدينة قبل بدر . وعلى هذا فيحتمل
أن يكون أبو طالب كان حاضرا ذلك . فلذلك قال[٣] :

* وأبيضَ يُستَسْقَى الغمامُ بوجْهِهِ * البيت .

لـكن روى ما يدل على أن القصة المذكورة وقعت بالمدينة . فإن لم يحمل على التعدد ،
وإلا فهو مشكل جدًّا . والله المستعان . انتهى .

وذكر ابن قتيبة فى تفسير الدخان على هــذا معنيين : أحدهما ــ أن فى سنة القحط يعظم
يبس الأرض بسبب انقطاع المطر ، ويرتفع الغبار الـكثير، ويظلم الهواء . وذلك يشبه الدخان.
ولهذا يقال لسنة المجاعة (الغبراء) ثانيهما ــ أن العرب يسمون الشر الغالب بالدخان. فيقولون
(كان بيننا أمر ارتفع له دخان) . والسبب فيه أن الإنسان إذا اشتد خوفه أو ضعفه ، أظلمت
عيناه ، فيرى الدنيا كالمملوءة من الدخان . انتهى .

وقال الشهاب : الظاهر أن هــذه التسمية استعارة . لأن الدخان مما يتأذى به . فأطلق
على كل مؤذٍ يشبهه ، أو على ما يلزمه ، ولذا قيل :

تُريد مهذَّبا لا عيبَ فيهِ   وهــل عودٌ يفوحُ بلا دُخَانِ

(١) أخرجه فى : ٤٤ ــ كتاب التفسير، ٤٤ ــ سورة الدخان، ١ ــ باب حدثنا محمود بن غيلان .

(٢) انظر الصفحة رقم ١١١ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبى الثانية) .

(٣) وعجز البيت :   * ثِمَالُ اليتامى عِصْمَةٌ لِلأَرَامِلِ *

وهذا البيت من قصيدة أبى طالب ، عم مولانا وسيدنا رسول الله ﷺ ، ومطلعها :

خليلىَّ ما أُذْنى لِأولِ عاذلِ   بِصَغْوَاءَ فى حقٍّ ولا عند باطِلِ

الوجه الثانى فى الآية ـ أنه دخان يظهر فى العالم . وهو إحدى علامات القيامة . ولم يأت بعدُ ، وهو آت وهو قول حذيفة . ويروى عن علىّ وابن عباس وجمع من التابعين . قال الرازىّ : واحتج القائلون بهذا القول بوجوه : الأول ـ أن قوله (يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ) يقتضى وجود دخان تأتى به السماء . وما ذكرتموه من الظلمة الحاصلة فى العين بسبب شدة الجوع ، فذاك ليس بدخان أتت به السماء . فكان حمل لفظ الآية على هذا الوجه، عدولا عن الظاهر ، لا لدليل منفصل ، وإنه لا يجوز . الثانى ـ أنه وصف ذلك الدخان بكونه مبينا . والحالة التى ذكرتموها ليست كذلك لأنها عارضة تعرض لبعض الناس فى أدمغتهم . ومثل هذا لا يوصف بكونه دخانا مبينا . والثالث ـ أنه وصف ذلك الدخان بأنه يغشى الناس . وهذا إنما يصدق إذا وصل ذلك الدخان إليهم واتصل بهم ، والحالة التى ذكرتموها لا تغشى الناس إلا على سبيل المجاز . وقد ذكرنا أن العدول من الحقيقة إلى المجاز لا يجوز إلا لدليل منفصل . الرابع ـ ماروى عن النبىّ ﷺ من عدّه الدخان من الآيات المنتظرة.

أما القائلون بالقول الأول ، فلا شك أن ذلك يقتضى صرف اللفظ عن حقيقته إلى المجاز. وذلك لا يجوز إلا عند قيام دليل يدل على أن حمله على حقيقته ممتنع ، والقوم لم يذكروا ذلك الدليل ، فكان المصير إلى ماذكروه مشكلاً جدا. فإن قالوا : الدليل على أن المراد ماذكرناه، أنه تعالى حكى عنهم أنهم يقولون (رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ) وهذا ، إذا إذا حملناه على القحط الذى وقع بمكة ، استقام . فإنه نقل أن القحط لما اشتد بمكة مشى إليه أبو سفيان وناشده بالله وبالرحم، ووعده أنه إن دعا لهم وأزال الله عنهم تلك البلية ، أن يؤمنوا به . فلما أزال الله تعالى عنهم ذلك رجعوا إلى شركهم . أما إذا حملناه على أن المراد منه ظهور علامة من علامات القيامة ، لم يصحّ ذلك . لأن عند ظهور علامات القيامة ، لا يمكنهم أن يقولوا (رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ) ولم يصح أيضا أن يقال لهم (إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ) والجواب: لم لا يجوز أن يكون ظهور هذه العلامة جاريا مجرى

ظهور سائر علامات القيامة ، فى أنه لا يوجب انقطاع التكليف ، فتحدث هذه الحالة . ثم إن الناس يخافون جدا فيتضرعون . فإذا زالت تلك الواقعة عادوا إلى الكفر والفسق. وإذا كان هذا محتملا ، فقد سقط ماقالوه ، والله أعلم . انتهى كلام الرازىّ .

وهكذا رجح الإمام ابن كثير الوجه الثانى، ذهابا إلى ما صح عن ابن عباس، ترجمان القرآن ومن وافقه من الصحابة والتابعين ، مع الأحاديث المرفوعة الصحاح والحسان وغيرها ، التى أوردوها ، مما فيه مقنع ودلالة ظاهرة ، على أن الدخان من الآيات المنتظرة . مع أنه ظاهر القرآن . قال الله تبارك وتعالى (فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ) أى بيّن واضح يراه كل أحد . وعلى ما فسر به ابن مسعود رضى الله عنه ، إنما هو خيال رأوه فى أعينهم من شدة الجوع والجهد . وهكذا قوله تعالى (يَغْشَى ٱلنَّاسَ) أى يتغشاهم ويعمّهم . ولو كان أمرا خياليا يخص أهل مكة المشركين لما قيل فيه (يغشى الناس) . وقوله تعالى (هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ) أى يقال لهم ذلك، تقريعا وتوبيخا. كقوله عز وجل[1] (يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا * هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ) أو يقول بعضهم لبعض ذلك. وقوله سبحانه وتعالى (رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ) أى يقول الكافرون إذا عاينوا عذاب الله وعقابه، سائلين رفعه وكشفه عنهم . كقوله جلت عظمته[2] (وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ) وكذا قوله جل وعلا[3] (وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ) وهكذا قال جل جلاله .

---

(١) [٥٢ / الطور / ١٣و١٤] . (٢) [٦ / الأنعام / ٢٧] .

(٣) [١٤ / إبراهيم / ٤٤] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ)

[١٤] (ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ)

« أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ * ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ » أى كيف لهم بالتذكر ، وقد أرسلنا إليهم رسولا بيّن الرسالة والنذارة . ومع هذا تولوا عنه وما وافقوه . بل كذبوه وقالوا معلم مجنون . وهذا كقوله جلت عظمته[١] (يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ) الآية . وكقوله عز وجل[٢] (وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ) إلى آخر السورة . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ)

« إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ » يحتمل معنيين : أحدهما ـ أنه يقول تعالى ولو كشفنا عنكم العذاب ورجعناكم إلى الدار الدنيا ، لعدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والتكذيب. كقوله تعالى[٣] (وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) وكقوله جلت عظمته[٤] (وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) والثانى ـ أن يكون المراد إنا مؤخروا العذاب عنكم قليلا بعد انعقاد أسبابه ووصوله إليكم ، وأنتم مستمرون فيما أنتم فيه من الطغيان والضلال. ولا يلزم من الكشف عنهم أن يكون باشرهم. كقوله تعالى[٥] (إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ » ولم يكن العذاب باشرهم واتصل بهم .

(١) [٨٩ / الفجر / ٢٣] . (٢) [٣٤ / سبأ / ٥١] .
(٣) [٢٣ / المؤمنون / ٧٥] . (٤) [٦ / الأنعام / ٢٨] .
(٥) [١٠ / يونس / ٩٨] .

بل كان قد انعقد سببه عليهم . ولا يلزم أيضا أن يكونوا قد أقلعوا عن كفرهم ثم عادوا إليه . قال الله تعالى ، إخبارا عن شعيب عليه السلام ؛ أنه قال لقومه حين قالوا[1] (لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ، قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ * قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا) وشعيب عليه السلام لم يكن قط على ملتهم وطريقتهم . وقال قتادة : (إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ) إلى عذاب الله . وقوله عز وجل :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ)

« يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ » فسّر ذلك ابن مسعود رضي الله عنه بيوم بدر . وهذا قول جماعة ممن وافق ابن مسعود رضي الله عنه على تفسيره الدخان بما تقدم. وروى أيضا عن ابن عباس رضي الله عنهما من رواية العوفيّ عنه وعن أُبيّ بن كعب رضي الله عنه وجماعة عنه ، وهو محتمل . والظاهر أن ذلك يوم القيامة ، وإن كان يوم بدر يوم بطشة أيضا . قال ابن جرير[2] : حدثني يعقوب . حدثنا ابن علية . حدثنا خالد الحذّاء عن عكرمة قال : قال ابن عباس رضي الله عنهما : قال ابن مسعود رضي الله عنه : البطشة الكبرى يوم بدر . وأنا أقول هي يوم القيامة . وهذا إسناد صحيح عنه . وبه يقول الحسن البصريّ وعكرمة في أصح الروايتين عنه . والله أعلم . انتهى كلام ابن كثير .

فصل :

وممن رجح الوجه الأول ، وهو أن المراد بالدخان يوم المجاعة والشدة مجازا ، بذكر المسبّب وإرادة السبب . أو بالاستعارة ، العلامة أبو السعود حيث قال : والأول هو الذي يستدعيه

(١) [٧ / الأعراف [٨٨و٨٩] .

(١) انظر الصفحة رقم ١٧٧ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية).

مساق النظم الكريم قطعا . فإن قوله تعالى (أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ) الخ ، ردّ لكلامهم واستدعائهم الكشف ، وتكذيب لهم فى الوعد بالإيمان ، المنبئ عن التذكر والاتعاظ بما اعتراهم من الداهية . أى كيف يتذكرون ؟ أو من أين يتذكرون بذلك ويفون بما وعدوه من الإيمان عند كشف العذاب عنهم ؟ (وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ) أى والحال أنهم شاهدوا من دواعى التذكر ، وموجبات الاتّعاظ ماهو أعظم منه فى إيجابها . حيث جاءهم رسول عظيم الشأن ، وبيّن لهم مناهج الحق ، بإظهار آيات ظاهرة ومعجزات قاهرة، تخرّ لها صمّ الجبال (ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ) عن ذلك الرسول وهو هو ، ريثما يشاهدون منه ما شاهدوه من العظائم الموجبة للإقبال عليه . ولم يقتنعوا بالتولى (وَقَالُواْ) فى حقه (مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ) أى قالوا تارة : يعلّمه غلام أعجمىّ لبعض ثقيف . وأخرى مجنون . أو يقول بعضهم كذا وآخرون كذا . فهل يتوقع من قوم هذه صفاتهم أن يتأثروا بالعظة والتذكير؟ وما مثلهم إلا كمثل الكلب إذا جاع ضعف ، وإذا شبع طغى . وقوله تعالى (إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ) جواب من جهته تعالى عن قولهم (رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ) بطريق الالتفات ، لمزيد التوبيخ والتهديد . ومابينهما اعتراض . أى إنا نكشف العذاب المعهود عنكم كشفا قليلا ، أو زمانا قليلا . إنكم تعودون إثر ذلك إلى ما كنتم عليه من العتوّ والإصرار على الكفر . وتنسون هذه الحالة . وفائدة التقييد بقوله (قَلِيلًا) الدلالة على زيادة خبثهم . لأنهم إذا عادوا قبل تمام الانكشاف ، كانوا بعده أسرع إلى العود . وصيغة الفاعل فى الفعلين ، للدلالة على تحققهما لا محالة . ولقد وقع كلاهما حيث كشفه الله تعالى ، بدعاء النبىّ ﷺ . فما لبثوا أن عادوا إلى ما كانوا عليه من العتوّ والعناد . انتهى ما قاله أبو السعود بزيادة .

فصل :

وأما الوجه الثالث فى الآية ، قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى . حدثنا جعفر بن مسافر .

حدثنا يحيى بن حسان . حدثنا ابن مهيعة . حدثنا عبد الرحمن الأعرج فى قوله عز وجل (يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ) قال: كان يوم فتح مكة . قال ابن كثير : وهذا القول غريب جداً بل منكر . انتهى .

أى لأنه لم يروَ مرفوعا ولا موقوفا على ابن عباس، ترجمان القرآن. أو غيره من الصحب. إلا أن عدم كونه مأثورا لا ينافى احتمال لفظ الآية له ، وصدقها عليه . لا سيما ، ويؤيده قوله تعالى فى آخر السورة (فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ) مما هو وعد بظهوره عليهم. وكان ذلك يوم الفتح . وحينئذ ، فمعنى قوله تعالى (إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ) أى ما ينزل بهم يومئذ ، برفع القتل والأسر عنهم . ومعنى (عَآئِدُونَ) أى إلى لقاء الله ومجازاته .

فصل :

يظهر مما نقلناه عن السلف فى هذه الآية من الأقوال الثلاثة ، أن هذه الآية من الآى اللاتى أخذت من الصحب ، عليهم الرضوان، اهتماما فى معناها ، وعناية فى البحث عن المراد منها . حتى كان ابن مسعود مصرًّا على وجهٍ، وعليّ وابن عباس وحذيفة على وجهٍ آخر. على ما أسند عنهم من طرق . ولعمر الحق! إن هذه الآية لجديرة بزيادة العناية . وهكذا كل ما كان من معارك الأنظار للأئمة الكبار . وسبب الاختلاف هو إيجاز الأسلوب الكريم، وإيثاره من الألفاظ أرقها ، وأوجزها . مما يصدق لبلاغته حقيقة تارة ومجازا أخرى . هذا أولا . وثانيا ، لما كان كثير من الأحاديث المروية تتشابه مع الآيات ، كان ذلك مما يقرب بينهما ويدعو إلى اتحاد المراد منهما. لما تقرر من شرح السنة للكتاب. وهذا ما درج عليه المحدّثون قاطبة . فترى أحدهم إذا رأى فى خبر ما يشير إلى آية ، قطع بأنه تفسيرها ووقف عنده ولم يتعده . وأما من فتح للتدبر بابا ومهد للنظر مجالا ، ورأى أن الأثر قد يكون من محمولات الآية وما صدقاتها ، وأنها أعم وأشمل ؛ أو إن حمل الخبر عليها اشتباه أفضى إليه التشابه ،

(١) [٤٤ / الدخان / ٥٩] .

فذاك وسّع للسالك المسالك ، وفتح للمريد المدارك . ورقاه من حظيرة النقل إلى فضاء العقل . ولـكلٍّ وجهة .

إذا علمت ذلك، رأيت أن من فسر هذه الآية بالمجاعة التى حصلت لقريش، أمكنه تطبيق الآية عليها مجازا فى بعض مفرداتها، وحقيقة فى بقيتها وفى وقوع مصداقها، فى رأيه. ومن فسرها بالدخان المنتظر ، المروىّ من أشراط الساعة ، وقف مع المروىّ ورأى أنه تفسيرها . لأن الأصل التوافق والحمل على المعهود . لأنه الأقرب خطورا والأسبق حضورا . ومن فسرها بالظهور عليهم يوم الفتح ، رأى أنهـا من بليغ المجاز وبديع الـكناية فى ذلك . وأن الوعد بالارتقاب . كثر أشباهه ونظائره فى غير ما آية ، مرادا به الفتح . كآية[1] (وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ * قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَـٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ * فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ) فهذا وأمثاله يبين مآخذ الأئمة ومداركهم فى التأويل . وبه يعلم أن أطراف المدارك قد تتجاذب اللفظ فتستوقف الرأى عن التشيع لمدرك دون آخر . ما لم يكن ثمة ما يرشح أحدها وقد يظن الواقف على كلام الرازىّ المتقدّم ، واحتجاجه للوجه الثانى بما أطال به ، أن لا منتدح ، بعد، عنه. مع أن للذاهب إلى غيره أن يجيب عن احتجاجه بما أسلفنا من صحة المجاز . بل وقوّته هنا. لأن المقام مقام إنذار وإيعاد . والذوق أكبر حاكم وإليه مردّ البلاغة . ولا يلزم المتأوّلَ نـكرانُه للدخان المنتظر. كما قد يتوهم . بل يعترف بأنه آية آتية يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ، وينقلب هذا النظام إلى نشأة ثانية . وأنه لا يلزم من الاشتراك اللفظىّ اتحاد المتلوّ والمروىّ. وبالجملة، فاللفظ الـكريم يتناول المعانى الثلاثة . وسببه تحقق مصداق الجميع . وأما تعيين واحد منها للمراد ، فصعب جدّا فيما أراه . لاسيما ولم يتفق الصحب على رأى فيها . هذا ما نقوله الآن. والله العليم . وقوله تعالى:

(١) [٣٢ / السجدة / ٢٨ ـ ٣٠] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ)

« وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ » أى ابتلينا ، قبل هؤلاء المشركين ، قوم فرعون ، بإرسال موسى عليه السلام إليهم ليؤمنوا . فاختاروا الكفر على الإيمان « وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ » أى على الله والمؤمنين . أو فى نفسه . فعلى الأول كريم بمعنى مكرّم أى معظّم. وعلى الثانى ، من الكرم بمعنى الاتصاف بالخصال الحميدة ، حسبا ونسبا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ، إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)

«أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ» أى أرسلوا معى بنى إسرائيل ، لأسير بهم إلى بلادنا الأولى. وأطلقوهم من أسركم وحبسكم . فإنهم قوم أحرار ، أبوا ، للضيم ، هذه الديار « إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ » أى على وحيه ورسالته ، التى حملنيها إليكم ، لأنذركم بأسه إن عصيتم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ ، إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ)

« وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ » أى بإنكار ربوبيته ، ودعوى الربوبية لأنفسكم ، وتكذيب رسوله وغضب عباده « إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ » أى حجة واضحة على ربوبية الله ، ونفى ربوبيتكم . وعلى رسالتى . وعلى أن بنى إسرائيل عباده الخاصة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ)

«وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ» أى اعتصمت به من رجمكم. يعنى القتل ، فعصمنى ، فلا ينالنى منكم مكروه ، مع أنه لا يعصم من افترى عليه . وقصد بهذه الجملة

إظهار مزيد شجاعته وثباته فى موقف تضطرب فيه الأفئدة ، وتزلّ الأقدام ، خوفا ورعبا . وما ذاك إلا لإيوائه إلى عصمة الله وتأييده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] ﴿ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴾

« وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِى فَٱعْتَزِلُونِ » أى فكونوا بمعزل عنى . فلست بموالٍ منكم أحدا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴾

« فَدَعَا رَبَّهُۥٓ » أى لما تابوا عن إجابته « أَنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ » أى مشركون مفسدون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾

« فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا » أى فأجاب دعاءه، وأوحى إليه بأن سر بقومك ليلا « إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ » أى إن فرعون وقومه من القبط متبعوكم . إذا شخصتم عن بلدهم وأرضهم ليرجعوكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] ﴿ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ، إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾

[٢٥] ﴿ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾

« وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا » أى فإذا قطعت البحر أنت وأصحابك ، فاتركه ساكنا على حاله التى كان عليها حين دخلته ، ولا تضرب بعصاك ليدخله القبط فيغرقوا « إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ كَمْ تَرَكُواْ » أى بعد هلاكهم بالغرق « مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ » أى بساتين وعيون يسقى منها ويتنعم بالنظر فيها ، هذا فى التفكه والتنزه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ)

« وَزُرُوعٍ » أى قائمة فى مزارعهم للقوت « وَمَقَامٍ كَرِيمٍ » أى محافل مزينة ومنازل مزخرفة.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَـٰكِهِينَ)

« وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَـٰكِهِينَ » أى متنعمين من نساء وأموال وحشم، ومالا يحصى من المشتهيات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ)

« كَذَٰلِكَ » أى أخرجناهم مثل هذا الإخراج . فالكاف، أو الجار والمجرور صفة مصدر مفهوم من الترك . أو هو خبر محذوف . أى الأمر كذلك . والمراد به التأكيد والتقرير « وَأَوْرَثْنَـٰهَا قَوْماً ءَاخَرِينَ » يعنى من خلفهم بعد مهلكهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ)

« فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ » قال الزمخشرى: إذا مات رجل خطير، قالت العرب فى تعظيم مهلكه: بكت عليه السماء والأرض. وبكته الريح وأظلمت له الشمس. قال جرير[1]:

* تَبْكِى عليكَ نجومُ الليلِ والقَمَرَا *

(١) قطعة من ثلاثة أبيات رثى بها عمر بن عبد العزيز . وصدر البيت .

* فالشمسُ كاسفةٌ ليستْ بطالِعَةٍ *

(الديوان ج ١ ص ٣٠٤)

وقالت الخارجية(١) :

أيا شَجَرَ الخابورِ مالَكَ مُورِقًا   كأنك لم تَجْزَعْ على ابنِ طَرِيفِ

وذلك على سبيل التمثيل والتخييل ، مبالغة فى وجوب الجزع والبكاء عليه . وكذلك ما يروى عن ابن عباس رضى الله عنه من بكاء مصلَّى المؤمن وآثاره فى الأرض ، ومصاعد عمله ومهابط رزقه فى السماء : تمثيل . ونفىُ ذلك عنهم فى قوله تعالى(١) (فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ) فيه تهكم بهم وبحالهم ، المنافية لحال من يعظم فقده. فيقال فيه : بكت عليه السماء والأرض . وعن الحسن : فما بكى عليهم الملائكة والمؤمنون ، بل كانوا بهلاكهم مسرورين . يعنى : فما بكى عليهم أهل السماء وأهل الأرض « وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ » أى مؤخّرين بالعقوبة . بل عوجلوا بها ، زيادة سخط عليهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ)

« وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ » يعنى استعباد فرعون وقتله أبناءهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (مِن فِرْعَوْنَ ، إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ)

« مِن فِرْعَوْنَ » بدل من العذاب ، على حذف مضاف . أو جعله عذابا، مبالغة لإفراطه فى التعذيب . أو حال من (المهين) بمعنى واقعا من جهته « إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا » أى متكبّرا على الناس « مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ » أى المتجاوزين الحدّ ، فى العتوّ والشرّ .

---

(١) البيت لليلى بنت طريف الشيبانىّ . ترثى أخاها الوليد ، وكان يزيد بن مَزْيَد قتله . والقصيدة مطلعها :

بِتَلِّ نُبَاتَا رسمُ قبر كأنه   على عَلَمٍ فوق الجبالِ مُنِيفِ

(الأغانى ج ١٢ ص ٩٣ ، طبعة الدار) .   (٢) [٤٤ / الدخان / ٢٩] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَـٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ)

« وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَـٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ » أى فضّلناهم لأجل علمٍ معهم، على عالمى زمانهم، أو عالمين بأنهم أحقاء بأن يختاروا ويؤثروا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (وَءَاتَيْنَـٰهُم مِّنَ ٱلْـَٔايَـٰتِ مَا فِيهِ بَلَـٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ)

« وَءَاتَيْنَـٰهُم » أى زيادة على اختيارهم وتفضيلهم « مِّنَ ٱلْـَٔايَـٰتِ » أى المعجزات والكرامات « مَا فِيهِ بَلَـٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ » أى نعمة ظاهرة، لأنهم حجة واضحة على أعدائهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ)

[٣٥] (إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ)

« إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ » أى مشركى قريش « لَيَقُولُونَ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ » أى المتعقبة للحياة . كأنهم أرادوا إلا موتتنا هذه. وليس القصد إلى إثبات ثانية. قال الإسنوىّ فى (التمهيد) : الأول فى اللغة ابتداء الشيء ثم قد يكون له ثان وقد لا يكون . كما تقول: هذا أول ما اكتسبته . فقد تكتسب بعده شيئاً وقد لا تكتسب . كذا ذكره جماعة ، منهم الواحدىّ فى تفسيره، والزجاج. ومن فروع المسألة، مالو قال: إن كان أول ولد تلدينه ذكراً فأنت طالق ، تطلق إذا ولدته ، وإن لم تلد غيره ، بالاتفاق . قال أبو علىّ : اتفقوا على أنه ليس من شرط كونه أولا ، أن يكون بعده آخر . وإنما الشرط أن لا يتقدم عليه غيره . انتهى .

وما ذكر أظهر مما للزمخشرىّ هنا « وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ » أى مبعوثين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ)

« فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ » أى فى بعثنا بعد بلائنا فى قبورنا. قال ابن كثير: وهذه حجة باطلة وشبهة فاسدة. فإن المعاد إنما هو يوم القيامة ، لا فى دار الدنيا . بل بعد انقضائها وذهابها وفراغها ، يعيد الله العالمين خلقا جديدا. ويجعل الظالمين لنار جهنم وقودا. ثم أنذرهم تعالى بأسه الذى لا يردّ ، كما حلّ بأشباههم من المشركين ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَـٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ)

« أَهُمْ خَيْرٌ » أى فى القوة والمنعة « أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَـٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ » أى أهلكناهم بجرمهم. وهو كفرهم وفسادهم. وهم ماهم. فما بال قريش لا تخاف أن يصيبها ما أصابهم؟ وقوم تبع هم حمير وأهل سبأ. أهلكهم الله عز وجل وفرقهم فى البلاد شذر مذر . كما تقدم فى سورة (سبأ) قال ابن كثير : وقد كانوا عربا من قحطان . كما أن هؤلاء عرب من عدنان. وكانت حمير كلما ملك فيهم رجل سموه تبعا. كما يقال (كسرى) لمن ملك الفرس و (قيصر) لمن ملك الروم . و (فرعون) لمن ملك مصر كافرا. و (النجاشيّ) لمن ملك الحبشة. وغير ذلك من أعلام الأجناس ، ولكن اتفق أن بعض تبابعتهم خرج من اليمن وسار فى البلاد حتى وصل إلى سمرقند . واشتد ملكه وعظم سلطانه وجيشه. واتسعت مملكته وبلاده وكثرت رعاياه . وهو الذى مصّر الحيرة . فاتفق أنه مر بالمدينة النبوية ، وذلك فى أيام الجاهلية ، فأراد قتال أهلها فمانعوه وقاتلوه بالنهار وجعلوا يَقْرُونَهُ بالليل . فاستحيا منهم وكفّ عنهم. واستصحب معه حبرين من أحبار يهود، كانا قد نصحاه وأخبراه أن لا سبيل له على هذه البلدة ، فإنها مهاجر نبيّ يكون فى آخر الزمان . فرجع عنها وأخذهما معه إلى بلاد اليمن. فلما اجتاز بمكة أراد هدم الكعبة. فنهياه عن ذلك أيضا، وأخبراه بعظمة

هذا البيت ، وأنه من بناء إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام . وأنه سيكون له شأن عظيم على يدى ذلك النبيّ المبعوث فى آخر الزمان . فعظمها وطاف بها وكساها المُلاء والوصائل والحبر . ثم كرّ راجعا إلى اليمن ، ودعا أهلها إلى التهوّد معه . وكان إذ ذاك دين موسى عليه الصلاة والسلام ، فيه من يكون على الهداية قبل بعثة المسيح عليه الصلاة والسلام ، فتهوّد معه عامة أهل اليمن . وقد ذكر القصة بطولها الإمام محمد بن إسحاق فى كتابه (السيرة) . وترجمه الحافظ ابن عساكر فى (تاريخه) ترجمة حافلة . وذكر أنه ملك دمشق . وساق ماروى فى النهى عن سبه ولعنه . قال ابن كثير : وكأنه ، والله أعلم ، كان كافرا ثم أسلم ، وتابع دين الكليم على يدى من كان من أحبار اليهود فى ذلك الزمان على الحق . قبل بعثة المسيح عليه السلام . وحج البيت فى زمن الجرهميين وكساه الملاء ، والوصائل من الحرير والحبر . ونحر عنده ستة آلاف بدنة . وعظمه وأكرمه . ثم عاد إلى اليمن . وقد ساق قصته بطولها الحافظ ابن عساكر من طرق متعددة مطولة مبسوطة ، عن أُبىّ بن كعب وعبد الله بن سلام وعبد الله بن عباس رضى الله عنهم ، وكعب الأحبار . وإليه المرجع فى ذلك كله ، وإلى عبد الله بن سلام أيضا . وهو أثبت وأكبر وأعلم . وكذا روى قصته وهب بن منبه ومحمد ابن إسحاق فى (السيرة) كما هو مشهور فيها . وقد اختلط على الحافظ ابن عساكر فى بعض السياقات ، ترجمة تبع هذا ، بترجمة آخر متأخر عنه بدهر طويل . فإن تبعا هذا المشار إليه فى القرآن أسلم قومه على يديه . ثم لما توفى عادوا بعده إلى عبادة الثيران والأصنام . فعاقبهم الله تعالى ، كما ذكره فى سورة سبأ . وتبّع هذا هو تبع الأوسط . واسمه أسعد أبو كرب . ولم يكن فى حمير أطول مدة منه . وتوفى قبل مبعث النبيّ ﷺ بنحو من سبعمائة سنة وذكروا أنه لما ذكر له الحبران من يهود المدينة ، أن هذه البلدة مهاجر نبيّ فى آخر الزمان اسمه أحمد ، قال فى ذلك شعرا . واستودعه عند أهل المدينة . فكانوا يتوارثونه ويروونه خلفًا عن سلف . وكان ممن يحفظه أبو أيوب خالد بن زيد الأنصاريّ ، الذى نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى داره ، وهو :

شهدتُ على أحمدٍ أنه رسولٌ من الله بارِى النَّسَمْ
فلو مُدَّ عُمْرِى إلى عُمْرِهِ لـكنتُ وَزِيراً لَهُ وابنَ عَمْ
وجاهدتُ بالسيف أعداءَهُ وفرَّجْتُ عن صَدْرِهِ كُلَّ غَمْ

ثم ساق ابن كثير آثارا فى النهى عن سبه : وبالجملة فإن قصته المذكورة والمروىّ فى شأنه ،وإن لم يكن سنده على شرط الصحيح ، إلا أن ذلك مما يتحمل التوسع فيه ، لكونه نبأ محضاً مجردا عن حكم شرعىّ . نعم ، لا يشك أن قريشا كانت تعلم من فخامة نبئه المروىّ لها بالتواتر ، ما فيه أكبر موعظة لها . ولذا طوى نبأه ، إحالة على ما تعرفه من أمره ، وما تسمر به من شأنه . وما القصد إلا العظة والاعتبار ، لاقصّ ذلك خبرا من الأخبار ، وسمرا من الأسمار ، كما هو السر فى أمثال نبئه . وبالله التوفيق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ)
[٣٩] (مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

« وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ * مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ » أى الاستدلال على خالقهما ، لعبادته وطاعته « وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » أى حكمة خلقها ، فيعرضون عنه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ)
[٤١] (يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ)
[٤٢] (إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ)

« إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ » أى فصل الله بين الخلائق وقضاءه عليهم ، ليجزيهم بما أسلفوا

من خير أو شرّ « مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ * يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا » أى من إثابة أو تحمّل عقاب « وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ » أى بأن وفّقه للإيمان والعمل الصالح « إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ » أى الغالب فى انتقامه من أعدائه « ٱلرَّحِيمُ » أى بأوليائه وأهل طاعته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ)

« إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ » أى التى هى أخبث شجرة معروفة فى البادية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ)

« طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ » أى الفاجر الكثير الآثام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِى ٱلْبُطُونِ)

[٤٦] (كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ)

« كَٱلْمُهْلِ » وهو درديّ الزيت ، أى عكره فى قعره « يَغْلِي فِى ٱلْبُطُونِ » أى يضطرب فيها من شدة الحرارة فيقلق القلوب ويحرقها . وقوله « كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ » أى الماء الحارّ الذى انتهى غليانه . وقوله (فِى ٱلْبُطُونِ) كقوله[1] (نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ * ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ) وهذه الآية كآية الصافات[2] (أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَـٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّـٰلِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ * فَإِنَّهُمْ لَـَٔاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ * ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ) .

(١) [١٠٤ / الهمزة / ٦و٧] .   (٢) [٣٧ / الصافات / ٦٢ـ٦٧] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ)

« خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ » أى ادفعوه بعنف « إِلَىٰ سَوَآءِ الْجَحِيمِ » أى وسطها ومعظمها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ)

« ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ » أى لتستوفى جميع أجزاء بدنه نصيبها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ)

« ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ » أى يقال له ذلك ، على سبيل الهزؤ والتهكم ، فيتم له ، مع العذاب الأول ، وهو الحسىّ ، العذابُ العقلىّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (إِنَّ هَـٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ)

« إِنَّ هَـٰذَا » أى العذاب أو الأمر « مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ » أى تشكّون ، مع ظهور دلائله . أو تمارون وتتلاحون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ)

« إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ » أى يأمن صاحبه من الخوف والفزع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ)

[٥٣] (يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ)

« فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ * يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ » أى مارقّ من الحرير وكثُف « مُّتَقَـٰبِلِينَ » أى فى مجالسهم أو أماكنهم ، لحسن ترتيب الغرف ، وتصفيف منازلهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ)

« كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ » أى قرنّاهم بما فيه قرة أعينهم واستئناس قلوبهم ، لوصولهم بمحبوبهم ، وحصولهم على كمال مرادهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَـٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ)

« يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَـٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ » أى يطلبون ويأمرون بإحضار ما يشتهون من الفواكه ، آمنين من كل ضرر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ، وَوَقَـٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ)

[٥٧] (فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ، ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ)

[٥٨] (فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

[٥٩] (فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ)

« لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ » قال ابن جرير[١] : أى لا يذوق هؤلاء المتقون فى الجنة ، الموت بعد الموتة الأولى ، التى ذاقوها فى الدنيا .

(١) انظر الصفحة رقم ١٣٧ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

وكان بعض أهل العربية يوجه (إلّا) هنا بمعنى (سوى) أى سوى الموتة الأولى . انتهى . يعنى أن الاستثناء منقطع . أى لكن الموتة الأولى قد ذاقوها فى الدنيا « وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ * فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ * فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ » أى سهلناه حيث أنزلناه بلغتك ، وهو فذلكة للسورة « لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » أى يتعظون بعبره وعظاته وحججه ، فينيبوا إلى طاعة ربهم ويذعنوا للحق « فَٱرْتَقِبْ » أى ما يحل بهم من زهوق باطلهم « إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ » أى منتظرون عند أنفسهم غلبتك . أو هو قولهم (نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ) وهـذا وعد له ﷺ بالنصرة والفتح عليهم ، وتسلية ووعيد لهم . وقد أنجز الله وعده ، كما قال سبحانه[1] (كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ) وقوله تعالى[2] (إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ) .

---

(١) [٥٨ / المجادلة / ٢١] .   (٢) [٤٠ / غافر / ٥١] .